التحليل الفكري الثقافي للمسلسل الباكستاني:
وجودي ذرة بلا أثر

د. ناصر ثناء الله*

الملخص:

"وجودي ذرة بلا أثر" هي مسلسل باكستاني منحوت من رواية بنفس الاسم [١]، الرواية للكاتبة الباكستانية "عميره أحمد"، إنها قصة مؤلمة لامرأة اسمها "صبا" تسكن مع أمها وأختها الصغيرة في باكستان في جوار عمَّها، أبوها يعمل في الإمارات المتحدة، وهي طالبة بالجامعة، وهي امرأة ليبرالية من حيث الفكر ونمط الحياة، فيكرهها عمها الكبير وزوجته كراهية شديدة، ولكن ابنهما "عارفين" يريد أن يتزوجها، ورغم كراهية الأبوين يتم النكاح بينهما، وقبيل الزفاف ترميها أم عارفين زورا بالزنا، فيضربها أبو عارفين بلا رحمة ويطلقها عارفين عندما فشلت في تثبيت براءتها، ثم تزوج برجل وقح عمره ضعف من عمرها، وهو أب لأربعة أبناء، وعندما تحمل منه رماها هو الآخر بالخيانة وأخرجها من بيتها في ظلام الليل، فتبدأ سفر حياتها بمفردها وهي تعمل في بيت طبيبة ثرية، ومن جانب آخر، تشخص أم عارفين بسرطان المرحلة المتقدمة، وتطلق ابنتها الصغرى، ويموت زوج ابنتها الكبرى في الحادث، وعند إشراف الأم على الموت تكشف بأنها رمت صبا زورا وأنها تريد الآن أن تستعفي منها، يقع هذا الانكشاف مثل الصاعقة على الجميع فيهرولون إلى أن يستعفوا من صبا التي تصفح كلهم ما عدا الأب المتوحش، إلا أنها ترفض أن تنضم معهم مرة أخرى، تعمل طول حياتها في مصنع عارفين دون أن تكشف هويتها، ملأت قلبها بحب عارفين ولكن رفضت الزواج معه، ولما بلغت روحها حلقومها تنصح ابنتها الوحيدة "سارة" بالذهاب إلى عارفين بعد

---

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، الكلية الحكومية،

١. هذه الرواية باللغة الأردية واسمها ميري ذات ذرة بي نشان

موتها، ففي هذه الدراسة أريد أن أتناول هذه القصة وطريقة تعرضها لمثل هذه القضايا الاجتماعية المهمة بالنقد وأدرس خيوطها الفكرية وما لها من أثر جسيم على المجتمع الإسلامي بشكل عام.

الكلمات المفتاحية: -

المجتمع الباكستانية، القضايا الاجتماعية، الثقافة الباكستانية، الدين الإسلامي، الأيديولوجية العلمانية، المنهج الليبرالي

قصة المسلسل: -

هي قصة مؤلمة لامرأة اسمها "صبا" وهي امرأة ليبرالية من حيث الفكر ونمط الحياة، وهي طالبة بالجامعة، عندما يعود ابن عمها الأكبر (عارفين) من أمريكا يقع في غرامها ويريد أن يتزوجها، ولكن أبويه يرفضان عرضه هذا للزواج رفضا تاما لأنهما يكرهان صبا لليبراليتها، إلا أن عارفين – وهو ابنهما الوحيد وكان علمانيا إلى درجة أكثر من أبويه – أقنعهما للزواج، عقد النكاح ولكن أبويه ضاقا ذرعا ولم يقبلا صبا بإخلاص، ملأ هذا النكاح قلب عارفين حبورا وسرورا، أما أمه فقد أصابها الأرق وسُهاد،

يسافر عارفين إلى أمريكا لمواصلة التعليم ويعود منها بعد سنة ليشهر زواجه من صبا، وقبيل هذه المناسبة المباركة، ترسل أم عارفين عادلا – وهو ابن عم عارفين الآخر- إلى غرفة النوم لعارفين (العروس) لإصلاح عُصية الستار- وعارفين غائب من البيت – ومن جانب آخر ترسل صبا إلى الغرفة نفسها لتنظيم الفراش، ولما دخلت صبا الغرفة وجدت عادلا يصلح العصية، وفي غضون ذلك يغلق باب الغرفة من الخارج، يحاول عادل وصبا فتح الباب ولكن دون الجدوى، وبينما هما في هذه الحال حيران ينفتح الباب بشدة العاصفة ويندفع أعضاء العشيرة كلها في الغرفة، فإذا أم عارفين تصرخ في وجههما وتضرب خديها قائلة إنها رأتهما متورطين في الفحشاء، ويبذل عادل وصبا مجهودات مضنية لإقناع من حولهما بأنهما لم يرتكبا إثما وأن أم عارفين هي التي أرسلتهما إلى الغرفة، ولكنها ترفض بأن أرسلتهما إلى الغرفة وتلومهما على ما

اقترفا من ظلم في حق عارفين، فينقلب كل أعضاء العشيرة بما فيهم أم صبا وأختها (أقصى) ضدهما -

ومن جهة أخرى، يأتي أبو عارفين ببندقيته ليقتل عادلا وصبا كليهما في الغرفة نفسها، إلا أنه عارضته زوجته وأبو عادل، وفي غضون ذلك تُخرِج أخت عارفين الكبيرة صبا من الغرفة وهي تقول: اخرجي أيتها الفاحشة، ارتكبت إثما وأنت واقفة هنا ليقتلك أبي فيشنق " كما تجر أم عادل عادلا من الغرفة وتطلب منه باكية أن يلوذ بالفرار خوفا من أن يقتله أبو عارفين -

تحاول صبا – وهي تمشي نحو بيتها بخطى ثقيلة بطيئة – إقناع أعضاء العشيرة عن براءتها مما رميت، فإذا هي يعارضها أبو عارفين ويضربها بلا رحمة ولا شفقة على مرأى العشيرة ومسمعها، ينصرف الجميع تاركين صبا مستلقاة على الأرض دون أن تأخذهم رحمة –

كريم -وهو أبو صبا والذي كان في الإمارات المتحدة، ووثق برواية أخيها الأكبر عما حدث -أيضا يرفض أن يستمع إلى ابنتها ويثق بروايتها للقصة، فتنقلب صبا خاسرة من هذه الجهة أيضا، ولم يبق لها من أمل إلا في زوجها عارفين الذي كانت صبا على يقين كامل بأنه يستمع إليها ويثق بروايتها فيجعل لها مخرجا من هذا المأزق-

يعود عارفين وقد انتصف الليل وكان قد ذهب لجلب أخته الصغيرة من بيت زوجها، ولما سمع من أمه عن صبا وعادل انهارت الأرض من تحت قدميها، ولكن سرعان ما تماسك أعصابه ورفض أن يثق برواية أسرته وأصر على أن يستمع رواية صبا أيضا حتى تنكشف له الحقيقة جلية، يقابل صبا التي تحاول إقناعه عن براءتها ولكنه يطلب منها أن تتقدم بدليل قاطع يثبت براءتها، تفشل صبا في تقديم الدليل، فيطلب منها عارفين أن تقسم واضعة يدها على كتاب الله بأنها بريئة، فأجابت بأنها مستعدة لليمين على شرط أن يطلب من أم عارفين أيضا أن تقسم بكتاب الله على أنها لم ترسلها إلى تلك الغرفة، وأنه إذا رفضت، ضربت وأهينت بنفس الطريقة التي تم ضرب صبا وإهانتها بها –

تقسم أم عارفين ولو مترددة بالقرآن بأنها لم ترسلهما إلى الغرفة وإنما ذهبا إليها بأنفسهما، وأنها رأتهما متورطين في الإثم –

فدهشت صبا عندما رأت أن امرأة مثل أم عارفين التي ذاع صيتها كامرأة صالحة تقية قائمة بالليل لهجة بذكر الرحمن، تقسم زورا بكتاب الله دون أن تخشى من غضب الله، فترفض أن تقسم بكتاب الله، فيتوهم الجميع بأنها هي المذنبة، وبناء على ذلك طلقها عارفين فإذا هي على عتبة حياة مملوءة بالبؤس والتعس –

وبعد بضعة أيام يسافر عارفين إلى أمريكا ويعود عادل إلى البيت ولكنه يرفض أن يستصفح من أحد لما اتهم به، ويصر على أنه وصبا بريئان كل البراءة إلا أنه لم يثق به أحد أيضا، وفي غضون ذلك يستصفح أبواه نيابة عنه أبوي عارفين الذين يعفوان عنه –

ومن جهة أخرى، يأتي أبو عارفين مفتخرا - وقد تكلم مع كريم الذي التمس منه أن يزوج صبا من رجل ما – ويطلب يد صبا لرجل وقح عمره ضعف عمرها وهو أب لأربعة أبناء، وقد أخبره أبو عارفين بكل ما رميت صبا به من قبل وطلقت من أجله، تحاول صبا إقناع أمها بأنها لم تعد ترغب في الزواج وأنها تريد أن تعيش ما بقي من حياتها في غرفتها ولكن أمها تخبرها بأنها (أي الأم) وأقصى تسافران إلى الإمارات وأن أباها (كريم) يكره أن يرى وجهها، وأنه باع البيت لأخيه الأكبر (أبو عارفين)، قلما شعرت صبا أنها مظلومة من كل جانب ولا مأوى لها ولا نصير، فتخضع للزواج برجل أمي وقح قاسي القلب –

ورغم التجلد والصبر أمام أقسى وأظلم أنواع ضربات القدر، لم ينجح هذا الزواج لأن زوجها دائما يشك في ولائها ووفائها ويضربها على أتفه الأمور، وعندما تحمل منه رماها بالخيانة وأخرجها من البيت في ظلام الليل –

تذهب صبا إلى بيت جارتها (حليمة) التي تسليها وتبحث لها وظيفة في بيت طبيبة ثرية، وبعد عدة أسابيع تضع صبا أنثى فتزداد مسئولياتها ضعفين –

ومن جانب آخر، تتغير الأحوال في بيت عارفين من حسن إلى سوء إلى ما هو

أســوء، تتزوج عارفين – خلافا لتطلعات أبويه – من فتاة باكســتانية في أمريكا والتي هي ليست من عشيرته، وهي – كما وصفه شجاع وهو صديق لعارفين – فتاة حداثية أكثر من النساء الغربيات أنفسهن، وتطلق أخت عارفين الصغيرة، كما يلقى زوج أخته الكبيرة بحتفه في الحادث، وتشخص أم عارفين بسرطان في المرحلة المتقدمة، كل هذه التطورات تضع أم عارفين على أحر من الجمر، وهي الآن تدرك بأن هذه المصائب إنما هي نتيجة طبيعية لرمي الأبرياء بما لم يرتكبوا، فســلب الله من بيتها كل العناية والرعاية والبركة والفضل، فيدفعها هذا الشعور إلى كشف الغطاء عن الأسرار التي أخفتها في أعماق قلبها لبعض الســنوات، فتعترف بأنها رمت صــبا زورا وأنها هي التي أرسلتهما إلى الغرفة، فينهار الأرض من تحت أقدام الجميع ويشعرون بالخجل والهوان، كما يحطم هذا الانكشــاف أســطورة تدينها وتقاها، والآن يريد جميع الأعضــاء أن يستصفح من صبا -

ورغم أن حياة صــبا كانت قد تهدمت وســقطت أنوار أحلامها قبل أن تتفتح كاملة، تصــفح للجميع ما عدا أبا عارفين الذي ضــربها بطريقة همجية على مرأى من العشيرة ومسمعها، ويطرق عارفين أيضا باب صبا وقلبه يتقطع أسا وحزنا، ويستعفي من صبا ويطرح عليها الزواج مرة أخرى، ترد صبا عليه عرضه هذا للزواج قائلة إنها لا تستطيع أن تثق به مرة أخرى، ثم يحاول عارفين أن يمد إليها يدا لمساعدتها في تحمل مسئولياتها ولكنها ترفض أن تقبل أي مساعدة منه أو من أي عضو أخر من العشيرة.

ومن أجل التخلص منهم وعلى وجه الخصوص من عارفين، تغادر صبا من بيت الطبيبة دون أن تخبر أحدا وتترك رسالة لعارفين تلتمس بها منه أن يمتنع من تعقبها، ثم تسعى صبا للحصول على وظيفة في مصنع، وحين تصل مصنعا لتتحدث مع المدير ينكشــف لها أن هذا المصــنع هو لعارفين الذي كانت قد فرت منه، وبعد أن تحصــل وظيفة تقرر على أن ترتدي حجابا لإخفاء هويتها الأصلية وتغير اسمها إلى "صاحبه بي بي "، تعمل في المصــنع لثماني عشــرة ســنة دون أن تبدي هويتها لأحد، وطول هذه السنوات كانت تلاعب ابن عارفين (حيدر) وترعاه وتأتي له بأشهى طعام من بيتها –

وعندما أشـــرفت على الموت، تعطي صـــبا –لابنتها الوحيدة (ســـاره) – رســـالة لعارفين وتوصـــيها أن تذهب إلى بيت عـارفين بعد موتها (موت صـــبا)، لأنه حســـب اعتقادها، سـوف يرعاها أحسـن رعاية، وبعد أربعة أيام من موت صـبا، تذهب سـارة إلى بيت عارفين الذي يرحّبها في بيته وهو طلق الوجه –

تحاول ســـارة وهي في بيت عـارفين أن تتعرف على العلاقة بين أمها وهذا الرجل، وذات يوم سألت عارفين مباشـرة عن العلاقة بينهما، فأجابها بأن صبا كانت ابنة عمه ولم يزد عليه شـيئا، ولكن سـارة تنكشـف لها الحقيقة عند زيارتها لبيت صـبا القديم حيث ترى صـور أمها مع عارفين التي أخذت على مناسـبة نكاحهما، ورسـائل التي كان عارفين يرسلها من أمريكا، بيد أنها لا تفهم كيف حل أبوها مكان عارفين، وهنا تساوره الشكوك – وللمرة الأولى – حول أمها –

وفي غضـون ذلك تتعرف أقصـى على أن صبا قد قضـت نحبها وتركت خلفها بنتا لها وبأنها أرسلتها إلى عارفين، فتريد أقصـى أن تأخذ سـاره معها إلى أمريكا، لأنها تخشـى من أن تفعل أسـرة عارفين مع سـارة ما فعلت مع أمها من قبل –

يطرح عـارفين أن يزوج ســـاره من ابنها الوحيـد، وقبيل عقـد النكاح مع حيـدر تتعرف سـارة – وهي تسـمع مصـادفة تحاور أقصـى مع أخت عارفين – على أسـباب طلاق أمها، والآن تعتبر سـارة أمها، والدموع تنهمر على خديها بما شـكت فيها من قبل، ضحية الظلم والقهر، فتقرر على أنها لن تتزوج حيدرا ولن تمنح للأسـرة الظالمة فرصـة أخرى لإعادتها ما فعلت بأمها قبل عقدين، فتفر من البيت وتذهب إلى صديقة لها من الطفولة من جيرانها –

ويقع هذا الخبر في آذان حيدر مثل الصاعقة فيصر على أن يعرف أسباب فرارها ويطلب من أبيها أن يخبره بكل ما حدث قبيل زفاف صـــبا إلى بيتـه، وحين يعرف الحقيقة، يقرر على أن يذهب في تعقب ساره، وبخلاف أبيها ينجح في الوصول إلى ساره وفي إقناعها لقبول الحقيقة والذهاب معها –

التحليل النقدي: -

يتناول هذا المسلسل قضية اجتماعية مستفحلة للغاية، يمكن أن توجد في أي مجتمع بشري، متدين كان أم غير متدين، ومعالجتها ضرورة ثقافية حضارية، فلا يوجد مجتمع بشري يملك أن يخفض البصر منها وإلا عاث فسادا في أقصاه وأدناه – ومع ذلك توجد فيه مواقف يجب أن نتوقف عليها:

أولا: إن كان مبررا الاعتراض على أفكار صبا ونمط حياتها الليبرالية، ما كان برميها بما لم ترتكب من تبرير، لا من حيث الإسلام ولا من حيث العلمانية، فقد ذم الإسلام منذ البداية هذا التصرف غير الإنساني وحذر المرتكب به بالعاقبة الوخيمة في الدنيا والآخرة، فقد قال القرآن في هذا الباب:

"إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعِنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم " (النور: ٢٣)

"والذين يرمون المحصناتِ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا منهم شهادة أبدا، وأولئك هم الفاسقون" (النور: ٤)

هذا هو الحل القرآني لهذا المشكلة وما أحسنه من حل، وما أساء من حل جيئ به في المسلسل، فقد أخرج البطلة من الرمضاء إلى النار، ومن سخرية الأقدار جاء الكاتب/ المخرج بمسلم عابد جاهل بالإسلام وجه لوجه مع علماني/ ليبرالي مثقف وطالب بالجامعة، فلعله (أي الكاتب) يحاول إظهار مدى إمكان تورط المرء المتدين في السلوك اللاأخلاقي وتدبير المؤامرة لأجل السيطرة على " الآخر الأيديولوجي " كما يحاول إظهار مدى الظلم والاضطهاد اللذان يعاني منهما الليبراليون في المجتمعات الإسلامية، وبالتالي يتم تشويه الإسلام بين أتباعه الجهلة و"عشاقه " الليبراليين –

ثانيا: وبعد سنة أو أكثر يتضح أن صبا كانت بريئة كل البراءة مما اتهمت به، إلا أن الطريقة التي استخدمت لإظهار براءتها بعيد الاحتمال بالإجمال، فقد تحققت بالتدخل الرباني، وهو ما يخالف سنة الله في هذه الأمور، وهي أن الله لا يتدخل مباشرة، وإنما يتركه تحت تصرف الناس ليحكموا بين الناس بالعدل مراعيين الأصول

المنزلة من عنده تبارك وتعالى، فالتاريخ حافل بالمثل على أن الله لم يتدخل في مثل هذا القضـايا مباشـرة ما عدا الحالات الاسـتثنائية، كما توجد حالات دفنت الحقيقة مع المتهِم والمتهَم، ومن ثم بدلا من اسـتخدام غضـب الله وعذابه لتثبيت براءة صـبا، كان من الأنسـب أن تعرض كيف تحل هذه المشـكلة بالمسـاعي الإنسـانية في ظلال الهدى الربانية، وكان من شـأنه أن يعلم الناس الطريقة المثلى لحل مثل هذه المشـاكل في حياتهم اليومية، فبالاعتماد على الله على نحو غير سليم، يدل هذا المسلسل على جادة حيث تصـبح تضـحية ذاتية حلا نهائيا، وحيث يدفع الضـحية إلى أن تتحمل عواقب الجريمة التي لم يرتكبها، فنرى أن هذا الحل ليس منافيا للهدى الرباني فقط بل هو مخالف للأصول الإنسانية والحضارية أيضا–

ثالثا: إن شخصية عادل شخصية هامشية، ومتهمة في الجريمة مع صبا، فكان ينبغي أن تتطور شـخصـيته وجيئ إلى المركز – ولو مؤقتا – ليلعب دورا رئيسـيا حتى تنكشـف الحقيقة وتثبت براءتهما، مع أنه يبدو مضـطربة الأوصـال إلى حد ما حول حالة صبا المؤلمة إلا أنه لم يقم بالمساعي الكافة والجدية ليسد الطريق أمام العشيرة حينما شروا صبا بثمن بخس دراهم معدودة (٣٢,٥ روبية باكستانية وهي صداق صبا للزواج الثاني المفروض عليها) – وبدلا من أن يبدى كيف يمكن للمرأة التي ظلمت واضـطهدت أن تخطو خطوة شـاذة – كان من الأمثل أن تسـتخدم شـخصـية عادل ليتخذ خطوات غير تقليدية وغير عادية للاعتراض على هذه الأعراف غير الإنسـانية الشـائعة في المجتمع، الأمر من شـأنه أن يكون إيجابيا بناءا وملائما للفطرة الإنسـانية ووفقا للهدى الربانية –

ويجب أن نتوقف هنا قليلا لأنه يمكن أن يتقدم بعض الناس باعتراض مهم حول إمكان جلب الشخصية الهامشية إلى المركز في القصة أو الرواية، هذا من شأنه أن يغير فكرة الشخصية الرئيسية/ المركزية في الفن والأدب –

فأرد بالتواضع على أنه إذا كنا نريد أن نقدم أدبا/فنا ذا غاية منشودة، فيجب أن نبذل كل غال ونفيس في سبيل تقريبه بالحياة الواقعية، وعلى وجه الخصوص إذا

كان دعوانا أننا نريد إصلاحا لما وقع في حياة الناس ومجتمعهم من فساد، ويجب أن نأخذه في الحسبان أنه لا يمكن تقديم أدب /فن هادف وذي عزم دون أن نتمتع بالجرأة الكافية ونعرض للشبهة بعض فكرات/تصورات حول شخوص في الأدب التي ذهب إليها أدباء ومثقفون من المجتمعات التي ساءت ظروفها إلى حد كئيب وموحش للغاية، لا يمكن أن نتبع خطواتهم فنتوقع نتائج مختلفة من إنتاجنا الأدبي /الفني، كما يجب أن نتذكر بأن هناك فروق جذرية بيننا المسلمين والغرب حول فكرة المجتمع والأمة، فأدبهم أيضا مدين لتصورهم للمجتمع هذا، ومعروف أن المجتمعات الغربية الحديثة أنشئت بعد ما ذاق الغربيون على يد الكنيسة ما ذاقوا من ظلم وعدوان، ما تقشعر لمجرد ذكرها الجلود وتتقطع لهولها القلوب، إن القساوس والرهبان حرفوا تعاليم المسيح الأصيلة إلى حد أنها فقدت كل الحيوية والدينامية التي اتصفت بها يوم نزولها، فلذلك لم يكن لديهم مرجع ميتافيزيقي/ماورائي لإصلاح بيتهم، فدفعتهم الظروف إلى جعل العقل دون غيره مرشدا في مجالات الحياة كلها، ومن المؤكد أن العقل السليم من شأنه أن يهدي الإنسان إلى ما هو أحسن وأصوب مما يهديه إليه الوحي الرباني المحرف –

وأما الإسلام فلن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأن الله تبارك وتعالى يحفظه من كل تحريف، فهو يقول:

"إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون "

فلا بد أن تدوم حتى قيام الساعة، فلا نجد ضالا أو مضلا أو محرفا إلا وله من يرده عن غيه وانحرافه ويبين له وجوه الضلالة في فكره، كما يبين وجه الإسلام المشرق ورسالته الحقة الصالحة لكل الزمان والمكان-

والمسلم أدبه ودينه وجهان للعملة الواحدة[1]، فلن يكون أدبه ذا عزم إلا إذا أدى واجبه تجاه الأمة الإسلامية دون المساس بدينهم، وإذا تقدم بالحلول لمشاكلهم

[1] . انظر، الأستاذ على عزت بيغوفيتش، الإسلام بين الشرق والغرب

الاجتماعية في ضـوء الشـريعة المطهرة، ففي هذا الإطار أعتقد أنه لا ضـير في أن نجر الشخصية الهامشية إلى المركز إذا كان ذلك مساعدا في إزالة الهم والحزن من مظلوم، وإذا دعت إليه الحاجة لتثبيت براءة أحد رمي بالفاحشة –

رابعا: وبعد سنة أو أكثر، عندما يتحقق أن صبا كانت بريئة كل البراءة من كل ما رميت به، ويتألم الجميع ويطلبون من صبا ملحين أن ترجع إليهم بشرف وكرامة وعزة، تفضـل صـبا أن تعيش حياتها على مبعدة منهم، وهو قرار بعيد كل البعد من الحياة الواقعية، وضار للبنية الاجتماعية بالذات –

فإن سدت الباب على وجه أبي عارفين، فلها في ذلك عذر، وإن رفضت أن تذهب مع أبيها المتهاون المادي فهي مبررة فيه أيضا، لكن كيف تستطيع أن تكون لينة الجانب لعارفين؟ فإن رفضـت عرضـه للزواج مرة أخرى لأنه لا يمكن لها أن تثق به ثانية، فالحق حليفها، ولكن كيف تملك أن تملأ قلبها بحب عارفين وأحلامها بذكرياته الحلوة؟ كيف يمكن للمرء أن يعيش بمعزل من حبيبه؟ كيف يمكن أن ينور قلبه بغرام المرء غير الموثوق به للحياة الزوجية السعيدة؟

خامسا: إذا استحقت أم عارفين – التي كانت هي وراء كل هذه الكارثة الثقافية والمأساة البشرية – أن تصفح عنها فلماذا لا يصفح عن الأب أو أب الزوج أو الزوج الذي كرهوها وأهانوها بمجرد المعلومات الخاطئة المزودة إليهم وفشل صبا في إثبات براءتها، فلماذا لا يوثق بعارفين ويصـفح عنه؟ وفوق كل ذلك، إذا غدر رجل واحد بامرأة، فهل يفيد هذا أن كل الرجال في المجتمع مماثلون به، وأنه كل واحد منهم يسلك نفس المسلك في مثل هذه الأمور؟ فإذا ساد مثل هذا المدى من سوء الظن بين الرجال والنساء في المجتمع، لن يتعذر عليكم أن تدركوا نتائج هذه الظاهرة الوخيمة، إنه سيكون حربا غير معلنة على القائمة الرئيسية للمجتمع، فهل إصلاح للمجتمع بعد فساد هذه القائمة؟

فلا ريب في أن هذه الظاهرة شـأنها أن تدفع المجتمع نحو ظاهرة مخيفة أخرى، ألا وهي ظاهرة " والدة وحيدة" التي اجتاحت البلاد الغربية والمتغربة، والتي بدورها

تفتح الباب على مصـــراعيه للظواهر الفتاكة الهدامة الأخرى، لأنه لا يمكن بأية حال أن تتجلد كل " والدة وحيدة " أمام ضـربات القدر مثل صـبا وتعيش عيشـة راضـية بســيطة، فتذهب كل "والدة وحيدة" مذهبها الأثير لتكســب ما يعيش به من الرزق، ومن المحتمل أن بعضـهن – إذا لم يجدن كفافا من الرزق – سـوف تنزلقن في فجور وفاحشـة، كما توجد احتمالات إذا دفعتها الظروف الاقتصـادية السـيئة ورغبتها أن تتمرد على المجتمع، أن تختار الدعارة مهنة لها تكسب منها قوتها ورزقها، ومن ثم تهدي فتيات المجتمع إلى ما هو أسوء مما كن فيه –

ولننظر إلى هذا الأمر من منظور آخر، إذا اختارت صـبا مثلا –وقد عفت الجميع وحصـلت على منزلة مرموقة في أعينهم – أن ترجع إلى عشـيرتها، كانت قد أصـبحت ملكتها وعنصـرا مهما للغاية للتغيير الإيجابي المحمود والإصـلاح المطلوب للمجتمع، وأمكن لها ذلك أن تحدد، لعشـيرتها ومن ثم للمجتمع بأكمله، أمثل الطريقة للتعرض بمثل هذه المشـاكل الاجتماعية، فمن المفارقة أن تصـفح عن الناس ظلمهم وعدوانهم عليك وتستمر في الانتقام منهم-

<u>سـادسـا</u>: ترسـل صـبا – وهي على فراش الموت – ابنتها الوحيدة "سـاره" إلى نفس الرجل من عشـيرتها الذي اعتبرته غير موثوق به، فهل لهذا التصـرف من مبرر ؟ كيف يمكن للأم أن تثق برجل في ابنتها ولم تثق به في نفســها هي ؟ ما هو الدرس الذي تريد أن تعلم الآخرين بقرارها هذا اللاعقلاني ؟ هل تلمح إلى أن "علاقة الحب " هي علاقة وحيدة بين البشـر لا انفصـام لها، وإن قرر الفريقان أن يعيشـا منفصلين بعضـهما من بعض ؟ أم تقصـد أن تعلم جميع المتورطين في الحب الذين فشـلت علاقة حبهم جراء الأســباب الأيديولوجية أو الخلافات العائلية – أنه يجب عليهم أن تدفعوا أولادهم – بعد أن تمت علمنتهم من الداخل بشـكل شـامل – سـاجدين على الباب نفســه حتى تمكنوا من ذرع أعلام فوزهم على " الآخر الأيديولوجي"-

<u>ســابعا</u>: يمثل حيدر – ابن عارفين الوحيد من زوجته المتغربة (مهروش) – تلك الطبقة من المجتمع التي تمت علمنة ثقافتها وفكرها، وأحلامها وأشــواقها، وقيمها

وتطلعاتها بشكل شامل – ففي نهاية المسلسل لما يعرف عن الأسباب التي طلق أبوه من أجلها "صبا"، أبدى حيدر استنكاره واستياءه من قرار أبيه، ولما سئله أبوه ماذا عساه يقرر لو كان مكانه، أجاب بلا تردد بأنه كان قد عفا عنها-

فليس هي إجابة شخص واحد من المجتمع، وإنما تلمح إلى أن الجيل الحديث (جيل حيدر) عليهم أن يتخلوا من جميع القيم الدينية والأخلاقية، ما كان أبوه متدينا إلا أنه كان ينظر بعين الاعتبار إلى بعض القيم الدينية والأخلاقية.

فالعفو عن الناس قيمة يجب أن يحبها الجميع ويسعى الناس إلى تحقيقها في المجتمع، ولكن لها شروط معينة لا فائدة لها بدونها، كيف يمكن أن نصفح عن الذي ارتكب الفحشاء قبيل زواجه؟ وما هي النتائج التي سوف تسبب عملية العفو على هذه المرحلة الحاسمة؟

وعلينا أن نتذكر هنا ما كانت إجابة شجاع – صديق لعارفين – عندما وجه عارفين نفس السؤال إليه في أمريكا، بعد أن كان قد طلق صبا، فأجابه شجاع " بأنه كان قد عفا عنها بشرط أن تكون نادمة وراغبة في التوبة " فشتان بين هذه الإجابة والتي تقدم بها حيدر في نهاية المسلسل والتي انتصرت وسادت فيه، إن لهذه الإجابة أهمية دينية وإنسانية ولها مجال وافر لترسيخ قيمة العفو في المجتمع، ويتضح من إجابة شجاع أيضا أنه – ولو مكث في الغرب ردحا من الزمن- يعيش حياة تقيم للقيم الدينية والأخلاقية قيمة مهمة، وأنه لم يستسلم للأفكار الغربية استسلاما يضعضع كيانه الثقافي والفكري والديني من الأصول، وفي هذا درس مهم للغاية للذين يريدون فساد المجتمع باسم إصلاحه –

الخاتمة:

فقد اتضح مما سبق أن هذا المسلسل، وإن كان وصفا صادقا للمشكلة التي ظهرت على الصعيد الواقع، تتقدم بالحلول البعيدة كل البعد من الحقيقة والرشاد، فالشخص الذي ظلمه المجتمع يدفع أن يتحمل مرارة هذا الظلم طوال حياته، فقد عفت صبا عن الجميع إلا نفسها، كأنها اعتزمت أن تتلذذ بعقاب الجريمة التي اتهمت

بها ولم ترتكبها –

إن الأقدار بيد الله تعالى ولا شـك فيه، ولكنه قد أعطى الإنسـان حرية الإرادة، التي إن مارسـها الإنسـان على نحو سـليم، يمكن له أن يرسـم كثيرا من معالم قدره، فإذا مال إلى خيار شاذ، لم تكن النتائج مؤيدة له –

وبقدر ما كانت قصة "صبا" مؤلمة، كانت خياراتها لاعقلانية وغير منطقية، وحدتها المفرضة ذاتيا حل خطير وغير مرغوب فيه لتعاستها، كان يمكن أن تعيش حياة الملكة مع عارفين أو على الأقل حياة سـعيدة مع رجل آخر – لو اختارته – لكن، و يا أسـفا، اختارت لنفسـها وابنتها الصـغيرة طريقا محفوفا بالمخاطر والمشـاق للمرأة وعلى نحو مدهش أكثر فهو ضار للمجتمع بشكل عام -